المحاضرة رقم 03: رواد علم الاجتماع الثقافي

تمهيد:

يمثّل علم الاجتماع الثقافي أحد الحقول المعرفية الأساسية التي سعت إلى فهم الثقافة بوصفها عنصرًا فاعلًا في بناء الحياة الاجتماعية، وليس مجرد انعكاس ثانوي للبنى الاقتصادية أو السياسية. فقد أدرك روّاد علم الاجتماع منذ البدايات الأولى لهذا العلم أن القيم والمعتقدات والرموز والمعاني المشتركة تشكّل الإطار الذي يتحرّك داخله الفعل الاجتماعي، وتحدّد أنماط التفكير والسلوك لدى الأفراد والجماعات.

وقد ارتبط ظهور علم الاجتماع الثقافي بتطوّر علم الاجتماع الكلاسيكي في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، في سياق تحوّلات اجتماعية عميقة رافقت الثورة الصناعية، ونشوء الدولة الحديثة، وتنامي الفردانية، وتغيّر أنماط العيش. هذه التحولات دفعت المفكرين الاجتماعيين إلى التساؤل حول دور الثقافة في تحقيق التماسك الاجتماعي، وفي تفسير التغيرات التي مست البنى الاجتماعية والاقتصادية والقيمية.

وأسهم عدد من الروّاد الكبار، أمثال إميل دوركايم، وماكس فيبر، وكارل ماركس، وجورج زيمل، في وضع الأسس النظرية والمنهجية لتحليل الظاهرة الثقافية، كلٌّ من زاويته الفكرية الخاصة. فقد ركّز بعضهم على الثقافة باعتبارها ضميرًا جمعيًا يضمن الاستقرار الاجتماعي، في حين نظر آخرون إليها بوصفها مجالًا للصراع والهيمنة، أو إطارًا للمعنى والتفاعل الرمزي.

إن دراسة روّاد علم الاجتماع الثقافي لا تقتصر على استعراض أفكارهم ونظرياتهم، بل تهدف إلى فهم كيفية تشكّل المقاربات المختلفة للثقافة، وإدراك تنوّع الزوايا التحليلية التي أسهمت في بلورة هذا الحقل المعرفي. ومن هنا تأتي أهمية هذه المحاضرة التي تسعى إلى التعريف بأهم الروّاد، وتحليل إسهاماتهم في بناء علم الاجتماع الثقافي، وبيان أثر أفكارهم في الدراسات الثقافية المعاصرة.

أولاً: أوغست كونت(1798–1857) (Auguste Comte)

1. لمحة عامة:

هو **مؤسس علم الاجتماع** وأول من استخدم مصطلح (*Sociologie*) عاش في فرنسا في مرحلة ما بعد الثورة الفرنسية، حيث كانت البلاد تبحث عن نظام اجتماعي جديد يعيد الاستقرار.

2. السياق الفكري:

كان كونت متأثرًا بروح **العقلانية والعلموية** التي سادت القرن التاسع عشر، وسعى إلى جعل دراسة المجتمع علمًا يقوم على الملاحظة والقوانين مثل العلوم الطبيعية.

3. أهم أفكاره:

- المجتمع يتطور عبر **ثلاث مراحل فكرية:**
  - ❖ **المرحلة اللاهوتية** :تفسير الظواهر بالقوى الإلهية والغيبيات.
  - ❖ **المرحلة الميتافيزيقية** :تفسير الظواهر بالمفاهيم المجردة.
  - ❖ **المرحلة الوضعية (العلمية)** :تفسير الظواهر بالبحث التجريبي والقوانين الاجتماعية.
- رأى أن **الثقافة** تمثل **الجانب الروحي والفكري للنظام الاجتماعي**، وأنها تتطور تبعًا لتطور الفكر الإنساني.
- أكّد على **التكامل بين الجوانب المادية والمعنوية** في المجتمع، وأن الاستقرار الاجتماعي يعتمد على الانسجام بينهما.

4. إسهامه في فهم الثقافة:

- وضع الأساس لفكرة أن **الثقافة نظام يعكس درجة تطور المجتمع**.
- ربط بين الثقافة والتنظيم الاجتماعي، معتبرًا أن الثقافة تُوجّه السلوك وتضبط العلاقات الاجتماعية.

5. تقييم نقدي:

- قدم تصورًا خطيًا لتطور الثقافة، وهو ما تعرض لاحقًا للنقد من الأنثروبولوجيين.
- رغم ذلك، يبقى كونت أول من دعا إلى **دراسة الثقافة والمجتمع بمنهج علمي منظم**.

ثانيًا: كارل ماركس(1818–1883) (Karl Marx)

1. لمحة عامة:

فيلسوف واقتصادي ألماني، أسس **النظرية المادية التاريخية**، واهتم بتحليل العلاقة بين الاقتصاد، السلطة، والثقافة.

2. السياق الفكري:

جاء فكره في سياق **الثورة الصناعية**، حيث ظهرت طبقة عاملة تعاني من الاستغلال، مما جعله يربط الثقافة بالبنية الاقتصادية.

3. أهم أفكاره:

- المجتمع يتكون من:
  - ❖ **البنية التحتية (الاقتصادية)** :وسائل الإنتاج والعلاقات الاقتصادية.
  - ❖ **البنية الفوقية (الثقافية)** :الدين، القيم، التعليم، والفكر.
- يرى أن الثقافة ليست مستقلة، بل **نتاج للبنية الاقتصادية**.
- "الأفكار السائدة في كل عصر هي أفكار الطبقة المسيطرة"، أي أن الثقافة تُستخدم لتبرير مصالح الفئات المهيمنة.
- دعا إلى فهم الثقافة باعتبارها **ساحة صراع طبقي**، يمكن من خلالها إما تكريس السيطرة أو تحقيق التحرر.

4. إسهامه في فهم الثقافة:

- أرسى فكرة **التحليل النقدي للثقافة**، بوصفها أداة للهيمنة أو المقاومة.
- ألهم لاحقًا مفكرين مثل **ريموند ويليامز** و**بيير بورديو**.

5. تقييم نقدي:

- ربطه الحتمي بين الاقتصاد والثقافة اعتُبر تقليلاً من استقلالية الثقافة.
- مع ذلك، فكرته حول **الوعي الزائف** والثقافة كأداة سلطة تُعد من أهم الإسهامات في علم الاجتماع الثقافي.

ثالثًا: إميل دوركايم(1858–1917) (Émile Durkheim)

1. لمحة عامة:

عالم اجتماع فرنسي، من مؤسسي المنهج العلمي في دراسة الظواهر الاجتماعية.

2. السياق الفكري:

جاء بعد كونت، في سياق بناء فرنسا الحديثة بعد الفوضى الثورية. أراد تأسيس علم اجتماعي مستقل عن الفلسفة.

3. أهم أفكاره:

- المجتمع كيان مستقل له قوانينه الخاصة.
- الثقافة تُختزل في مفهوم **الضمير الجمعي** (ensemble des croyances et des sentiments communs).

- درس في كتابه "***الأشكال الأولية للحياة الدينية***" كيف تعبّر الطقوس والمعتقدات عن **تماسك الجماعة**.
- الثقافة، بالنسبة له، ليست ناتجة عن الأفراد بل عن المجتمع ككل، وهي قوة قاهرة تُوجّه السلوك وتخلق التضامن الاجتماعي.

4. إسهامه في فهم الثقافة:

- نقل دراسة الثقافة من المستوى الفردي إلى المستوى الاجتماعي الكلي.
- رسخ فكرة أن الثقافة تؤدي **وظيفة تكاملية** داخل المجتمع.

5. تقييم نقدي:

- ركّز على التماسك وأهمل الصراع داخل الثقافة.
- رغم ذلك، يبقى دوره محوريًا في تحويل الثقافة إلى **موضوع سوسيولوجي قابل للملاحظة والقياس**.

رابعًا: ماكس فيبر (1864–1920) (Max Weber)

1. لمحة عامة:

سوسيولوجي ألماني، من مؤسسي المنهج **التفسيري** في علم الاجتماع.

2. السياق الفكري:

عاصر التحولات الاقتصادية والسياسية في أوروبا، واهتم بفهم **المعاني الذاتية للأفعال الاجتماعية**.

3. أهم أفكاره:

- رفض الحتمية الاقتصادية الماركسية، ورأى أن الثقافة يمكن أن **توجّه الاقتصاد** وليس العكس.
- في كتابه "***الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية***"، بيّن كيف ساهمت القيم الدينية البروتستانتية في نشوء الرأسمالية.
- يرى أن الأفعال الاجتماعية تُكتسب معناها من **النظام الثقافي والقيمي** الذي يعيش فيه الأفراد.

4. إسهامه في فهم الثقافة:

- اعتبر الثقافة **نظامًا من المعاني الرمزية** التي تمنح السلوك دلالته.
- فتح الباب أمام مقاربة الثقافة من منظور **المعنى والتأويل**.

5. تقييم نقدي:

- قدّم تصورًا عميقًا للثقافة بوصفها مجالًا من القيم لا من البنى المادية.
- أُخذ عليه إغفاله للديناميات المادية والسياسية للثقافة، لكنه أسّس لمدرسة *علم الاجتماع الفهمي* التي أثّرت في غيرتز لاحقًا.

خامسًا: جورج زيمل(1858–1918) (Georg Simmel)

1. لمحة عامة:

فيلسوف وسوسيولوجي ألماني، مهتم بالحياة اليومية والثقافة الحديثة.

2. أهم أفكاره:

- ميّز بين **الثقافة الموضوعية** (العلم، الفن، القوانين) و**الثقافة الذاتية** (تطور الفرد الداخلي)
- رأى أن الحداثة أنتجت **تناقضًا** :الإنسان يخلق الثقافة ثم تصبح **مستقلة عنه وتتحكم به.**
- درس ظواهر مثل **الموضة والمال والمدينة** كرموز ثقافية تعبّر عن روح العصر.

3. إسهامه في فهم الثقافة:

- كان من أوائل من درس **الثقافة اليومية والمادية.**
- أشار إلى أن الثقافة ليست فقط إنتاجًا فكريًا، بل أيضًا تجربة حياتية تتجلى في تفاصيل الحياة الحديثة.

4. تقييم نقدي:

- ركز على الجانب الجمالي والفردي للثقافة، مما جعل فكره أكثر فلسفية من علمية.
- لكنه مهد الطريق أمام علم الاجتماع الثقافي الحديث الذي يدرس الرموز والمعاني في الحياة اليومية.

سادسًا: إدوارد تايلور(1832–1917) (Edward B. Tylor)

1. لمحة عامة:

أنثروبولوجي بريطاني، يُعد من أوائل من قدّم تعريفًا علميًا للثقافة.

2. أهم أفكاره:

- في كتابه *الثقافة البدائية* (1871)، عرّف الثقافة بأنها: ***"الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع".***
- رأى أن الثقافة **عالمية** ولكنها تتطور بدرجات مختلفة بين الشعوب.
- تبنّى المنظور **التطوري** الذي يرى الثقافات تتطور من البساطة إلى التعقيد.

3. تقييم نقدي:

- ركّز على التقدم الثقافي الخطي مما يُظهر نزعة مركزية أوروبية، لكن تعريفه للثقافة بقي **مرجعًا أساسيًا** في جميع العلوم الاجتماعية.

سابعًا: برونيسلاف مالينوفسكي(1884–1942) (Bronisław Malinowski)

1. لمحة عامة:

أنثروبولوجي بولندي–بريطاني، مؤسس المدرسة **الوظيفية** في الأنثروبولوجيا.

2. أهم أفكاره:

- من خلال دراسته الميدانية في **جزر تروبرياند**، رأى أن الثقافة **نسق متكامل** من العادات والمؤسسات التي تلبي حاجات الإنسان البيولوجية والنفسية والاجتماعية.
- كل عنصر ثقافي يؤدي وظيفة محددة.
- شدد على أهمية **الملاحظة بالمشاركة** في دراسة الثقافة.

3. إسهامه في فهم الثقافة:

- جعل الثقافة موضوعًا **عمليًا** لدراسة الحاجات البشرية.
- أسّس تقاليد البحث الميداني في الأنثروبولوجيا.

4. تقييم نقدي:

- حصر الثقافة في الجانب الوظيفي، دون النظر إلى الصراع أو المعاني الرمزية.
- مع ذلك، أثّر فكره في علم الاجتماع الوظيفي لاحقًا.

ثامنًا: رادكليف براون(1881–1955) (A.R. Radcliffe-Brown)

- تبنّى المنظور **الوظيفي البنيوي**.
- رأى أن المجتمع مثل الكائن الحي، وكل مؤسسة ثقافية تقوم بوظيفة للحفاظ على التوازن.
- الثقافة ليست مجرد رموز أو قيم بل **نظام من العلاقات الاجتماعية المنظمة**.
- نقده أنه تجاهل التغير والصراع، لكنه رسّخ فكرة أن **الثقافة نظام مترابط**.

تاسعًا: كليفورد غيرتز(1926–2006) (Clifford Geertz)

- من مؤسسي **المدرسة التفسيرية الرمزية**.
- اعتبر أن الثقافة شبكة من المعاني ينسجها الناس بأنفسهم.
- مهمة عالم الاجتماع هي تقديم "الوصف الكثيف" لتلك المعاني في سياقها المحلي.
- درس الطقوس والدين والأسواق في إندونيسيا والمغرب.
- ركّز على الثقافة بوصفها **نظامًا رمزيًا** لا يمكن فصله عن الحياة الاجتماعية.
- انتقده البعض لاهتمامه بالمغزى أكثر من البنية، لكن أثره عميق جدًا في علم الاجتماع الثقافي.

عاشرًا: ريموند ويليامز(1921–1988) (Raymond Williams)

- من رواد **الدراسات الثقافية البريطانية**.
- جمع بين الماركسية والتحليل الثقافي.
- اعتبر الثقافة "طريقة حياة كاملة" تشمل الممارسات اليومية لا النخب فقط.
- حلّل كيف تُستخدم الثقافة في إنتاج الهيمنة الأيديولوجية.
- دعا إلى ثقافة **مقاومة** تعبّر عن أصوات الطبقات الشعبية.
- ربط بين الثقافة والاتصال والإعلام.
- ترك بصمة كبيرة في تحليل **الثقافة الجماهيرية**.

حادي عشر: بيير بورديو(1930–2002) (Pierre Bourdieu)

- سوسيولوجي فرنسي من أبرز المعاصرين.
- درس العلاقة بين **الثقافة والسلطة الاجتماعية**.
- قدّم مفاهيم مركزية:
  - ❖ **الهابيتوس** :منظومة من الميول والتصرفات التي يكتسبها الفرد من بيئته الاجتماعية.
  - ❖ **رأس المال الثقافي** :المعرفة والذوق والتعليم الذي يمنح مكانة اجتماعية.
  - ❖ **المجال الثقافي** :ساحة الصراع الرمزي بين الفاعلين الاجتماعيين.
- يرى أن الثقافة تُستخدم لإعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي، لأن الطبقات العليا تفرض أذواقها ومعاييرها الثقافية على الآخرين.
- نقده البعض لأنه ركّز على الهيمنة أكثر من التغيير، لكنه أسّس أحد **أكثر النماذج تأثيرًا في تحليل الثقافة والسلطة**

ثاني عشر: مقارنات:

1. المقارنة بين الرواد الكلاسيكيين

الرائد	الوظيفة الأساسية للثقافة	المنهج	زاوية النظر للثقافة
كونت	تنظيم المجتمع وتحقيق النظام	المنهج الوضعي	الثقافة مرآة لتطور الفكر الإنساني
ماركس	تبرير الهيمنة الطبقية أو مقاومتها	المادية التاريخية	الثقافة انعكاس للبنية الاقتصادية
دوركايم	خلق التضامن الاجتماعي	المنهج الوضعي والوظيفي	الثقافة ضمير جمعي مشترك
فيبر	إضفاء المعنى على الفعل الاجتماعي	المنهج الفهمي	الثقافة نظام من القيم والمعاني
زيمل	التعبير عن التفاعل الإنساني	التحليل الفلسفي الاجتماعي	الثقافة تجربة ذاتية وجمالية

- **كونت ودوركايم** يركزان على *الاستقرار والانسجام*.
- **ماركس** يرى الثقافة مجالاً *للصراع*.
- **فيبر وزيمل** يقدمان رؤية أكثر *فردانية ورمزية*.
- هذا يعني أن النظرة للثقافة انتقلت من التركيز على *البنية* إلى التركيز على *المعنى*.

2. المقارنة بين الأنثروبولوجيين

الرائد	الإسهام	المنهج	طبيعة الثقافة
تايلور	أول تعريف علمي للثقافة	التطوري المقارن	كيان شامل عالمي يتطور عبر الزمن
مالينوفسكي	تأسيس المنهج الميداني	الملاحظة بالمشاركة	نسق وظيفي لتلبية الحاجات
رادكليف براون	فهم العلاقة بين البنية والثقافة	البنيوي الوظيفي	نظام بنيوي متكامل

- ركز هؤلاء على دراسة **الثقافات المحلية** و**الوظائف الاجتماعية** للعادات.
- فحوّلوا دراسة الثقافة من التأمل الفلسفي إلى **الملاحظة العلمية الميدانية**.
- لكنهم أغفلوا الصراع والتغير، ما جعل أفكارهم مناسبة لفهم المجتمعات التقليدية أكثر من الحديثة.

3. المقارنة بين المنظرين المعاصرين

الرائد	الإسهام	المفاهيم الرئيسة	التصور الأساسي للثقافة
كليفورد غيرتز	إدخال المنهج التفسيري في السوسيولوجيا	الوصف الكثيف، التأويل	الثقافة شبكة من المعاني الرمزية
ريموند ويليامز	تأسيس الدراسات الثقافية الحديثة	الهيمنة، المقاومة، الثقافة الشعبية	الثقافة طريقة حياة وصراع أيديولوجي
بيير بورديو	تفسير كيفية إعادة إنتاج التفاوت الاجتماعي عبر الرموز	الهابيتوس، رأس المال الثقافي، المجال	الثقافة أداة للهيمنة الاجتماعية

- **غيرتز** ينظر للثقافة كـ *نظام رمزي للمعنى*.
- **ويليامز** يراها *عملية اجتماعية تاريخية مرتبطة بالسلطة*.
- **بورديو** يجمع بين الاثنين :*الثقافة رمزية لكنها خاضعة للصراع الاجتماعي*.

بهذا انتقل علم الاجتماع الثقافي من التركيز على **الثقافة كتنظيم** إلى اعتبارها **نظامًا رمزيًا وميدانًا للهيمنة والمقاومة**.

4. أثر هؤلاء الرواد في علم الاجتماع المعاصر

- ❖ **المنظور الوظيفي** (من دوركايم ومالينوفسكي) ما زال يُستخدم في فهم كيفية مساهمة الثقافة في التماسك الاجتماعي.
- ❖ **المنظور الماركسي والنقدي** (من ماركس وويليامز وبورديو) حاضر بقوة في تحليل الإعلام والهيمنة الثقافية.
- ❖ **المنظور التفسيري** (من فيبر وغيرتز) أساسي في الدراسات الميدانية حول الرموز والمعاني.
- ❖ **المنظور البنيوي** (من براون) أثّر في تحليل النظم الثقافية المغلقة.

كل هذه المناهج تكمّل بعضها، وتشكل اليوم ما يسمى بـ **التعددية النظرية في علم الاجتماع الثقافي**.

خلاصة المحاضرة

إن الثقافة مفهوم **ديناميكي متعدد الأبعاد**، يتضمن الرموز والمعاني والعلاقات الاجتماعية، ولا يمكن فهم المجتمع دون فهم ثقافته، ولا يمكن فهم الثقافة بمعزل عن القوى الاجتماعية والاقتصادية.

وقد قدم كل رائد من الرواد **زاوية نظر مختلفة** عن الثقافة والمجتمع:

- ❖ كونت ودوركايم: التنظيم والنظام.
- ❖ ماركس: الصراع والهيمنة.
- ❖ فيبر وغيرتز: المعنى والقيم.
- ❖ ويليامز وبورديو: السلطة والمقاومة.

ويستفيد علم الاجتماع الثقافي اليوم من كل هذه المساهمات لفهم ظواهر مثل: الإعلام والثقافة الرقمية، العولمة والهوية، الثقافة الشعبية والاستهلاك.

ويمكن القول إن رواد علم الاجتماع الثقافي أسّسوا **جسرًا بين الفكر والمجتمع**، وجعلوا الثقافة محورًا لفهم الإنسان في كل أبعاده. إن دراسة أفكارهم لا تعني فقط حفظ أسمائهم، بل فهم كيف تطورت **طريقة التفكير في الإنسان والمجتمع**. من خلالهم، ننتقل من النظر إلى الثقافة كشيء نملكه، إلى النظر إليها كـ **شيء يشكّلنا ويعيد إنتاجنا** في كل لحظة.